الـجزائـر
جـامـعـة 08 مـاي 45 قـالـمـة
كـلـيـة الـعـلـوم الإنـسـانـيـة و الاجـتـمـاعـيـة
قـسـم الـعـلـوم الإنـسـانـيـة
==========

بحث بعنوان

المسألة اللغوية في الخطاب الإعلامي الجزائري

إعـــداد

الأستاذ: احسن خشـــة

أستاذ مساعد بقسم العلوم الانسانية

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية . جامعة 08 ماي 45

بحث مقدم إلى

المؤتمر الدولي الثاني للغة العربية

الفترة من 7- 10 ماي

2013

مقدمة

لا تزال المسألة اللغوية تطرح نفسها في السياق الجزائري سياسيا واجتماعيا وتربويا، على الرغم من مضي ردح من الزمن–يتجاوز النصف قرن– على استقلال الجزائر، ولا تزال الآراء منقسمة بين مؤيد ومعارض، وهو أمر ينذر بالعديد من التداعيات على صعيد الهوية الوطنية الجزائرية.

ولا شك في أن وسائل الإعلام بشكل عام والصحافة المكتوبة على وجه الخصوص من أبرز الفضاءات التي تعكس هذه الآراء والتوجهات إزاء المسألة اللغوية سواء كانت على الصعيد الاجتماعي أو التربوي أو السياسي.

وإذا انطلقنا من مسلمة وجود ازدواجية لغوية في الخطاب الإعلامي الجزائري، اعتمادا على النتائج التي توصلت إليها بعض الدراسات الأكاديمية[1]، فان السؤال المحوري الذي يطرح نفسه في هذا الإطار: كيف يمكن تفسير هذه الازدواجية اللغوية في الخطاب الصحفي الجزائري؟

انه من غير الممكن فهم وتفسير الخطاب الإعلامي حول المسألة اللغوية دون استقراء تاريخي يخص المرحلة التاريخية الجزائرية خاصة خلال فترة الاحتلال الفرنسي الغاشم ، ويمتد قبل ذلك إلى الفترة العثمانية ، ذلك الكيان السياسي الذي كان موحدا للأقطار العربية والإسلامية مدة طويلة، وفي هذا الاطار تتداخل الأبعاد الفكرية والحضارية مع التجليات الإعلامية والسياسية.

وقبل الدخول في تفصيلات هذه الورقة البحثية تجدر الإشارة إلى النقاط التالية:

1–أن مظاهر الازدواجية في السياق الجزائري وحتى العربي يتمظهر في العديد من القضايا مثل: اللغة، الهوية، المنظومة التربوية، الإيديولوجية السياسية، مكانة الدين اجتماعيا، القانون، الاقتصاد، المعرفة...الخ

2–أن الازدواجية اللغوية تندرج ضمن عنوان أشمل هو إشكالية"الهوية" في المنطقة العربية عامة والجزائرية منها على وجه الخصوص.

3–أن التجليات الإعلامية في هذا الإطار ماهي إلا انعكاس للازدواجية الملاحظة على المستويات اجتماعيا وسياسيا وثقافيا.

5–من الصعب فهم موضوع الازدواجية اللغوية اعتمادا على مقاربة تفكيكية تفصل الواقع المحلي أو الوطني عن الواقع العربي والإسلامي.

ووفقا لما تقدم تقسم هذه الورقة البحثية إلى عدة عناصر:

أولا : المسألة اللغوية في السياق العربي والإسلامي

ثانيا : المسألة اللغوية في السياق التاريخي الجزائري

ثالثا: الخطاب الإعلامي حول المسألة اللغوية

رابعا: استنتاجات عامة

أولا : المسألة اللغوية في السياق العربي والإسلامي

1–تفكك مفهوم "الأمة" في بعده الحضاري

[1] أم الخير تومي، الخطاب الإعلامي والازدواجية الثقافية بالجزائر، أطروحة دكتوراه، قسم علم الاجتماع، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران، الجزائر، 2010

تعرف الأمة بأنها كل جماعة يجمعهم أمر ما، إما دين واحد، أو زمان واحد أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيرا أو اختيارا ،يتكون من أربعة معان : اختيار، حركة، تقدم، هدف[1]

ترتبط اللغة بالهوية، وهذه الأخيرة مرتبطة تاريخيا بمفهوم الأمة، والمعروف أن رابطة الأمة هي رابطة عقائدية، وليست رابطة تاريخية أو عرقية ، أو لغوية أو سياسية، بل هي إعلان انتماء إلى عقيدة التوحيد بغض النظر عن الفروقات القومية أو العرقية، وسواء تجسدت هذه الأمة في دولة واحدة أو في عدة دول، أو حتى فقدت كيانها السياسي بشكل كامل، يبقى الانتماء إلى الأمة قائما ومستمرا باستمرار الانتماء العقائدي،...فالحضارة الإسلامية التي تجسدت تاريخيا بالدولة، وفكريا بالعقيدة التوحيدية، ومعرفيا بالوحي، تجد وحدتها وتكاملها الداخلي بالهوية الجامعة الواحدة، وتجد تجسدها الفعلي والواقعي، السياسي والاجتماعي في مفهوم الأمة [2]

وكانت الدولة العثمانية تمثل الكيان السياسي الجامع الذي يرمز إلى الهوية المشتركة للمجتمعات العربية والإسلامية، ومن ثمة فان انهيار هذه الخلافة وإلغائها على يد مصطفى كمال أتاتورك عام 1924 هو الذي أدى إلى ظهور خطاب الهوية والذي تندرج ضمنه إشكالية اللغة في العديد من البلاد العربية والجزائر على وجه التحديد.

2-إشكالية الهوية في المنطقة العربية

تجدر الإشارة في البداية إلى أنه من الصعوبة تحديد معنى "الهوية " ، إضافة إلى تعذر تجريد هذا المفهوم من مضامينه الإيديولوجية التي تتدخل بطريقة أو بأخرى في تحديد أبعاده .

وفي اعتقادنا أنه لا يمكن إغفال مجموعة من الاعتبارات في ضبط هذا المفهوم:

الاعتبار الأول : أنه ينبغي التفريق بين الهوية كتصور وبين الهوية كتطبيق سلوكي، فكثيرا ما يصرح الأفراد بأن هويتهم تتناغم إلى حد بعيد مع كل ما يتوافق وثوابت الأمة من لغة وتاريخ وقيم وعادات وما إلى ذلك ، ولكن إذا تأملنا في سلوكياتهم نجدها تتناقض مع كل ما يمت بصلة إلى الأنا القيمي والحضاري للأمة .

الاعتبار الثاني :أن مفهوم الهوية تتداخل فيه الأبعاد الاجتماعية والثقافية والدينية وغيرها، بحيث أن المصطلح الأصوب في هذا السياق هو الحديث عن هويات بدل هوية واحدة ، فهناك الهوية القومية، وهناك الهوية الدينية، وهناك الهوية الاجتماعية وهكذا .

---

[1] الشاهد البوشيخي، فقه واقع الأمة، مجلة حراء، العدد33، اسطنبول، نوفمبر، ديسمبر 2012، ، ص 10

[2] محمد عادل شريح، إشكالية الهوية في الفكر الإسلامي الحديث، دمشق، دار الفكر، 2010، ص 43-45

وفي غالب الأحيان نجد هناك تداخلا بين هذه الهويات بحيث تمتزج أحيانا مع بعضها البعض لتشكل هوية واحدة ، وفي أحيان أخرى تستعمل كأدوات للصراعات المعلنة والخفية بين الأطياف الاجتماعية والسياسية المختلفة ، فنجد الهوية الدينية في مقابل الهوية القومية ، والهوية الاجتماعية في مقابل الهوية الوطنية وهكذا .

الاعتبار الثالث : أن الهوية مجال قابل للاتساع والانكماش بحسب عدد ونوعية الأفراد الداخلين فيه ، ويتأسس على ذلك طبيعة التفاعل ، وقد عبر عن ذلك المفكر عابد الجابري بقوله "الهوية الثقافية مستويات ثلاثة: فردية، وجمعوية، ووطنية قومية. والعلاقة بين هذه المستويات تتحدد أساسا بنوع "الآخر" الذي تواجهه[1].

ويشرح المفكر عابد الجابري هذه الفكرة بقوله " إن العلاقة بين هذه المستويات الثلاثة تتحدد أساسا بنوع "الآخر"،بموقعه وطموحاته: فإن كان داخليا، ويقع في دائرة الجماعة، فالهوية الفردية هي التي تفرض نفسها كـ"أنا"، وإن كان يقع في دائرة الأمة فالهوية الجمعوية) القبلية، الطائفية، الحزبية الخ) هي التي تحل محل "الأنا"الفردي. أما إن كان" الآخر" خارجيا، أي يقع خارج الأمة (والدولة والوطن) فإن الهوية الوطنية –أو القومية– هي التي تملأ مجال "الأنا."[2]

إن "الهوية" تعتبر مفهوما إشكاليا ، لأن لها أبعادا متداخلة فيما بينها تتعلق بالمرجعية التاريخية و الإيديولوجية والسياسية والحضارية واللغوية والدينية، وهذه المتغيرات تجعلنا بإزاء مفهوم يحتمل دلالات مختلفة ومتغيرة من مرحلة زمنية إلى أخرى ،وخاصة في سياق العولمة المعاصرة التي ألقت بظلالها الوارفة على معاني ودلالات الهوية، وبالتالي فان تعريف الهوية يتباين من باحث لآخر، ولكن بشكل عام تتوافق على فكرة أساسية مؤداها " أن الهوية ليست أمرا مقررا ، بل هي توجد وتنشأ[3] ، وتتشكل من خلال جملة من القيم والأبعاد القابلة للتجسيد والتفعيل من خلال الأفكار المتجددة في كل مرحلة زمنية ، وبحسب درجة الصعود الحضاري أو السقوط الحضاري لأمة من الأمم ، وهنا يمكن الحديث عن "دورة الهوية " والتي يمكن وصفها بأنها تمر بثلاث مراحل أساسية مرحلة التشكل وهنا تتموقع في المجال الثقافي والاجتماعي والإنساني ، ثم مرحلة الازدهار وهنا تبلغ درجة كبيرة من الفاعلية ، ثم مرحلة التراجع والانكماش .

وهذه المراحل تختلف حسب المعايير التالية المتكاملة فيما بينها :

1–المعيار الزمني : فلكل فترة زمنية خصوصياتها بحيث أن إحساس الفرد بالأنا الثقافي والحضاري يختلف من مرحلة زمنية إلى أخرى .

---

[1] www.mukalla-online.com/modules/news/article.php?storyid=775

[2] www.almaghrebiya.com/p=5917

[3] كريس باركر ، التلفزيون والعولمة والهويات الثقافية ،ترجمة علا أحمد إصلاح ، القاهرة ، مجموعة النيل العربية ، 2006 ، ص 18

2-درجة ارتباط الفرد والجماعة بالقيم الثقافية والحضارية ، فكلما زاد تمسك الفرد بها كلما تعددت المؤشرات التي تؤكد على تميز الهوية الثقافية والحضارية .

3-مكانة المجتمع أو الدولة التي ينتمي إليها الفرد في سلم التطور الحضاري ، فإذا كانت الدولة مزدهرة حضاريا فان ذلك ينعكس على إحساس الفرد بانتمائه إليها ، أما إذا كانت الدولة في مرحلة السقوط أو الركود الحضاري فان الفرد يعيش نوعا من الارتباك في الهوية بحيث يعتقد أفكارا معينة ويناقضها بسلوكيات مخالفة لها .

وتلعب وسائل الإعلام بشكل عام دورا لا يستهان به في التعبير عن الهوية المجتمعية من ناحية وتفكيك وإعادة بناء الهويات الثقافية سواء على المستوى الفردي أو الجماعي من ناحية أخرى ، ويأتي في مقدمة هذه الوسائل ، التلفزيون الذي " أصبح موردا رئيسا لبناء مشروعات الهوية "[1]

تشكل وسائل الإعلام المختلفة أوعية لتعزيز الهوية بكل أبعادها ، إذا ما ضبطت موجات برامجها على كل ما يمت لقيمها وحضارتها بصلة ، كما يمكن أن تشكل هذه الوسائل معاول هدم وتفكيك لكل ما يرمز للهوية المفترضة ، وهنا تفقد المقولات الأصلية التي تكون الهوية هيبتها وقيمتها ، وتتماهي في الآخر المختلف عنا ثقافيا وحضاريا ، وهنا يكون الفرد على قدر من الجاهزية والقابلية لتبني أفكار الآخر ، وسلوكياته مهما بلغت حدة تناقضها مع الهوية الأصيلة.

وتجدر الإشارة إلى أن الهوية في بعدها الإعلامي يمكن النظر إليها من خلال عناصرها المختلفة ، والتي يمكن تجزئتها إلى محورين أساسيين :

أولهما : المكونات الثقافية : وهي المكونات الأساسية التي تجسدها السياسة الإعلامية التي تعتمدها القناة والتي تضم جملة القيم والمبادئ والمعايير التي تتحدد بها الممارسة الإعلامية ، إضافة إلى اللغة وكذا الاعتبارات الأخلاقية التي ينضبط بها العاملون بالمؤسسة الإعلامية .

ثانيهما : المكونات التقنية، وهي مكونات ثانوية مثل "الشارة الإعلامية " أو اللوغو ، إضافة إلى الألوان المستخدمة ، والموسيقى ، والجينيريك وغيرها.

[1] المرجع السابق ، ص 18

وتندرج اللغة ضمن الفئة الأولى ، وهي التي تجعل القناة كائنا إعلاميا متميزا بين مختلف الكائنات الإعلامية الأخرى . وسنركز في هذا السياق على الهوية في بعدها اللغوي ،واقتصرنا على الحالة الجزائرية بالرغم من أن واقع اللغة العربية إعلاميا ينسحب على السياق العربي كله من المحيط إلى الخليج ، ومهما حاولنا إضفاء نبرة تفائلية حول ملابسات هذا الواقع ، إلا أن نقاطا سوداء تظل عالقة في الأذهان ، وتنذر بمساوئ أكبر في مقترب الأزمان ، لذلك فان إجراء وقفات للمراجعة وتشخيص الأوضاع وفقا لمعطيات ميدانية ، يمكنها الإسهام في إبقاء شعلة تصحيح المسار متقدة مهما تقلبت بنا ظروف الدهر، ومهما علت أصوات المثبطين والمرجفين في أصقاع البلاد العربية والإسلامية .

وتبرز إشكالية الهوية في بعدها اللغوي في الجزائر في أن النخب المثقفة منقسمة من حيث المبدأ حول الموقف من اللغة العربية وسياسة التعريب في الجزائر، وبدل أن يكون إتقان المجتمع للغات متعددة عاملا ايجابيا في استيعاب العلوم والمعارف، تحول الأمر إلى حالة من الاستقطاب بين فريقين ، شكل عائقا أمام الوحدة الوطنية ، وكرست ازدواجية مجتمعية لا تزال انعكاساتها قائمة إلى وقتنا الحالي.

3-المشاريع الإيديولوجية[1] في المنطقة العربية

ومن خلال الاستقراء التاريخي نميز بين عدة قوالب ايديولوجية اتخذت أشكالا تنظيمية سياسية وصلت إلى الحكم في بعض الأقطار، وواصلت مسيرة التبشير بأطروحاتها، ومارست نفوذها، وأثرت بطريقة أو بأخرى على وضعية اللغة العربية بسياساتها وقراراتها.

ويمكن تقسيم هذه الروافد الفكرية بحسب المنظرين الأساسيين الذين حملوا لوائها إلى ما يلي:

أ- النموذج الحداثي: ويعتقد بأن الهوية قابلة للتطور، وليس هناك مسلمات في هذا الإطار، ومن أقطاب هذا النموذج نجد طه حسين وسلامة موسى.

لقد عبر سلامة موسى عن نزعته التغريبية في قوله:" كلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة، توضحت أمامي أغراضي في الأدب كلما أزاوله. فهي تتلخص: في انه يجب علينا أن نخرج من آسيا، وأن نلتحق بأوربا. فاني كلما زادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له، وشعوري بأنه غريب عني. وكلما زادت معرفتي بأوربا زاد حبي لها وتعلقي

[1] عرف "هال" الأيديولوجيا بأنها أطر ذهنية تشتمل على اللغة والمفاهيم والتصنيفات والتصورات الذهنية وأنساق التعبير التي تنشرها وتتداولها مختلف الجماعات والطبقات الاجتماعية لإضفاء معنى وتحديد التصورات والتفسير الجلي لما يحدث في المجتمع والواقع المحيط. انظر:أحمد زكريا أحمد، نظريات الإعلام، المنصورة، المكتبة العصرية، 2009، ص ص 292، 293

بها، وزاد شعوري بأنها مني وأنا منها. هذا هو مذهبي أعمل له طول حياتي سرا وجهرا. فأنا كافر بالشرق، مؤمن بالغرب"[1]

كما أشار طه حسين إلى نفس الميولات في كتابه"مستقبل الثقافة في مصر" الذي ظهر في عام 1938، وتركزت مفهوماته حول ثلاثة محاور[2]:

الأول: الدعوة إلى حمل مصر على الحضارة الغربية، وطبعها بها، وقطع ما يربطها بقديمها، واسلامها.

الثاني:الدعوة إلى إقامة شؤون الحكم على النمط الليبرالي.

الثالث: الدعوة إلى إخضاع اللغة العربية لسنة التطور، ودفعها إلى طريق ينتهي باللغة الفصحى إلى أن تصبح لغة دينية فحسب كالسريانية، والقبطية، واللاتينية.

ووضح معالم الخروج من دائرة التخلف بكيفية "واضحة بينة مستقيمة، ليس فيها عوج، ولا التواء، وهي: أن نسير سيرة الأوربيين، ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا، ولنكون لهم شركاء في الحضارة: خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب"[3]

ومع بدايات ازدهار الفكر الاشتراكي وانتصار الثورة البلشفية في روسيا، تبلورت أطروحات هذا التيار تنظيميا وتأسست العديد من الأحزاب السياسي التي تنهل من معين الاشتراكية مثل الحزب الشيوعي التونسي في سنة 1920، وفي مصر سنة 1922، وفي العديد من الدول العربية الأخرى.

ب- النموذج المحافظ: ويعتقد بأن الهوية حالة حضارية مستمرة عبر التاريخ، ومن أقطاب هذا النموذج نجد حسن البنا، أبو الأعلى المودودي، وغيرهما

وتبلورت أفكار هؤلاء المؤسسين في شكل حركات وتنظيمات تشكلت بعد سقوط الدولة العثمانية مثل: حركة الإخوان المسلمين التي تأسست في مصر سنة 1928.

ويعتقد هذا التيار بأن القيم الدينية هي التي يجدر بها أن تحكم المجتمع سياسيا واقتصاديا وثقافيا، وأن التراجع الحضاري وحالة الانكسار التي تعانيها المجتمعات العربية والإسلامية مردها إلى إقصاء الدين من حركة الحياة الاجتماعية، خصوصا وأن الدين كان لفترة طويلة هو الناظم لحياة المجتمع في شتى الميادين.

ثانيا : المسألة اللغوية في السياق التاريخي الجزائري

تقول سيغريد هونكة: " لا يوجد هناك بلد عربي نال الاستعمار الأجنبي من صميمه مثل الجزائر، ولا عانى مما عانته الجزائر، أو أحس بحنين أشد وقعا واندفاعا نحو هويته الأصلية، التي اغتصبت منه عمدا وبانتظام خلال 130 سنة من السيطرة الفرنسية"[4]

---

[1] محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، القاهرة، دت، ص 212

[2] صالح حسن سميع، أزمة الحرية السياسية في الوطن العربي،القاهرة، الزهراء للإعلام العربي،1977، ص ص 451، 452

[3] طه حسين، ص 21، ص 41

[4] سيغريد هونكة: من الاستيلاب إلى استرجاع الآنية، ملتقى الفكر الإسلامي الأول، الجزائر، 1974، ص 396

لقد عرفت اللغة العربية منذ الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا وقبل الاحتلال الفرنسي الغاشم فترة ازدهار وثراء ورفاه ، فانتشرت المدارس والجامعات في كل الأرجاء شرقا وغربا ، شمالا وجنوبا ، وأصبحت اللغة العربية رافدا من الروافد الحضارية التي تشكل معالم الشخصية الوطنية الجزائرية .

ثم جاء الاحتلال الفرنسي الاستيطاني الذي احتل ربوع البلاد فعاث فيها فسادا بطريقة غير مسبوقة ولا ملحوقة ، لفترة امتدت قرنا ونيفا ، فمارس سياسة الإبادة والتنكيل والتجهيل ، فسالت دماء ودماء ، تصعب على العد والإحصاء.

لم يدخر الاحتلال الفرنسي جهدا في استئصال اللغة العربية ، وارتكب كل الموبقات لإزالتها ، وقد وصل به الأمر إلى حد اتخاذ مرسوم قرار اعتبر فيه العربية في الجزائر لغة أجنبية ، لا يقبل تعلمها وتعليمها إلا بتسريح خاص من حكومة فرنسا .

لقد انقسمت النخب الجزائرية خلال فترة الاحتلال الفرنسي إلى قسمين:

أ- دعاة الاندماج : تتصور الاندماج في الدولة الفرنسية ثقافيا ولغويا وسياسيا والمساواة مع الفرنسيين

ونورد في هذا السياق مقولة فرحات عباس:

"لن أموت في سبيل **الوطن** الجزائري، لأن هذا الوطن لا وجود له، فقد سألت عن التاريخ وسألت عن الأحياء والأموات ولا أحد حدثني عنه"

ب- دعاة الانفصال: وتمثله جمعية العلماء المسلمين بقيادة ابن باديس، الإبراهيمي...

ونورد في هذا السياق مقولة ابن باديس(جريدة الشهاب):

"إن هذه **الأمة** الجزائرية الإسلامية ليست فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا..."

ويقول البشير الإبراهيمي: "فلما أقام الإسلام بهذا الشمال الإفريقي إقامة الأبد وضرب بجرانه فيه أقامت معه العربية لاتريم ولاتبرح ، مادام الإسلام مقيما لا يتزحزح ، ومن ذلك الحين بدأت تتغلغل في النفوس ، وتتساغ في الألسنة واللهوات ، وتنساب بين الشفاه والأفواه . يزيدها طيبا وعذوبة أن القران بها يتلى ، وأن الصلوات بها تبدأ وتختم –فما مضى عليها جيل أو جيلان حتى اتسعت دائرتها ، وخالطت الحواس والشواعر ، وجاوزت الإبانة عن الدين إلى الإبانة عن الدنيا ، فأصبحت لغة دين ودنيا معا ، وجاء دور القلم والتدوين فدونت بها علوم الإسلام وآدابه وفلسفته وروحانيته ، وعرف البربر على طريقها مالم يكونوا يعرفون ، وسعت إليها حكمة يونان ، تستجديها البيان ، وتستعديها على الزمان ، فأجدت وأعدت . وطار إلى البربر منها قبس لم تكن لتطيره لغة الرومان ، وزاحمت البربرية على ألسنة البربر فغلبت وبزت ، وسلطت سحرها على النفوس البربرية فأحالتها عربية ، كل ذلك باختيار لا أثر فيه للجبر ، واقتناع لا يد فيه للقهر ، وديمقراطية لا شبح فيها للاستعمار . وكذب وفجر كل من يسمي الفتح الإسلامي استعمارا . وإنما هو راحة من الهم الناصب ، ورحمة من العذاب الواصب ، وإنصاف للبربر من الجور الروماني البغيض.[1]

[1] محمد البشير الابراهيمي ، عيون البصائر ، الجزائر ، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع ، د ت ، ص 221

وبعد استقلال الجزائر في 05 يوليو 1962 عن سلطة الاحتلال الفرنسي الظالم ، بدأت الجزائر تستجمع قواها شيئا فشيئا ، في ظل محدودية الإمكانات ، وتفاقم الأزمات المختلفة في جميع المجالات، وفي ظل النسبة المرتفعة من الأمية والفقر والتهديدات الخارجية وغيرها .

بدأت اللغة العربية تزحف تدريجيا لتتموقع في التعليم والمدرسة الجزائرية ، وحظيت بمكانة هامة تدعمت شيئا فشيئا ، و"لكن المشكلة كانت في البيئة غير المعربة ، من معاملات إدارية ومواد سينمائية وتلفزيونية ، بل وإذاعات أجنبية في متناول حركة أصبع واحد ، أصبحت كلها تؤدي عند التلميذ وعند الطالب بل وعند المواطن بشكل عام ، إلى حالة من انفصام الشخصية ، تماما كما يحدث عند من يتعلم قيادة السيارة بالأسلوب الغربي ، أي على يمين الطريق ، ثم يخرج إلى الشارع ليضطر ، لأنه في الباكستان أو الهند لقيادة السيارة على الجانب الأيسر للطريق ، أي بالأسلوب البريطاني "[1]

وزاد الأمر سوءا ، فيما يتعلق بتعريب المحيط آنذاك ، محدودية الإنتاج التلفزيوني باللغة العربية ، وعدم وجود نظام عربي موحد لدبلجة الأفلام الأجنبية ، نتيجة لعدم وجود إستراتيجية فكرية عربية واحدة على مستوى الوطن العربي كله ، حيث ترك الأمر للخواص أو للتقنيين [2]

شكلت الاعتبارات السابقة وغيرها محيطا غير ملائم لازدهار اللغة العربية، فثبطت عملية التعريب التي قننتها الدولة الجزائرية وشرعت في ترجمتها على أرض الواقع ، لكن المسيرة توقفت ، وزادها سوءا استشراء العامية في مختلف المجالات ، حتى أضحت بديلا عن الفصحى في التواصل ، والغريب في الأمر أن الذين يتساهلون في تعميم العامية ، لا يخطئون في التفصح باللغات الأجنبية .

وفي نفس السياق هناك مسألة أخرى على درجة كبيرة من الأهمية والمتمثلة في "القضية الأمازيغية "، وهي التي أضافت للواقع اللغوي في الجزائر انشغالا آخر يقض مضاجع المثقفين والسياسيين نظرا لتعدد المقاربات التي تعرضت لطرائق معالجة الموضوع،الأمر الذي جعلها تتميز بنوع من الحساسية ، على اعتبار أن غالبية سكان الشمال الإفريقي هم من الأمازيغ أو البربر، مما أدى بوجود أصوات تنادي بضرورة إحياء البعد الأمازيغي للمجتمع ، وقد تطور الأمر إلى جعل البعد الأمازيغي عنصرا من عناصر الهوية الوطنية إلى جانب العربية والإسلام ، ولا تزال أصوات أخرى تدعو إلى ترقية الأمازيغية من كونها لغة وطنية إلى تكريسها لغة رسمية ، وهذه مسألة تضاف إلى الازدواجية اللغوية المكرسة في دواليب الحكم والإدارة بين العربية والفرنسية ، مما يرشح الأمر إلى تداعيات أخرى لا نعرف مداها ولا يمكن التنبؤ بمالاتها .

وليس من السهولة القول بوجود وشائج تجمع بين أطروحات دعاة التغريب في السياق العربي ودعاة الاندماج في السياق التاريخي الجزائري، إلا أن التقارب الفكري يشهد العديد من نقاط التوافق.

---

[1] محي الدين عميمور ، الجزائر الحلم والكابوس ، الجزائر ، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ، 2003 ، ص 61

[2] المرجع السابق ، ص 62

واذا كان السابقون من دعاة الاندماج في فترة الاحتلال الفرنسي يدعون إلى إلحاق الجزائر بفرنسا، فان دعاة الازدواجية اللغوية بعد الاستقلال يؤيدون الاندماج الثقافي مع فرنسا، وهذا أمر يتناغم حد بعيد مع تصرح ديغول في مذكراته:

وهل يعني أننا إذا تركناهم يحكمون أنفسهم يترتب التخلي عنهم بعيدا عن أعيننا وقلوبنا، قطعا لا فالواجب يقتضي منا مساعدتهم لأنهم يتكلمون لغتنا ويتقاسمون معنا ثقافتنا"[1]

ويتوافق أيضا مع ما ورد في فصل التعاون الثقافي في اتفاقيات ايفيان: "أن يشجع كل بلد في أرضه دراسة اللغة والحضارة والتاريخ الخاص بالبلد الآخر"[2]

وبالنسبة للتيار المحافظ فان القول بوجود امتداد فكري بين التيارات السائدة عربيا والتيار السائد جزائريا يمكن الاستدلال عليه بالعديد من المؤشرات، يكفي التأمل في نص البرقية التي أرسلها الشيخ البشير الابراهيمي والشيخ الفضيل الورتلاني إلى حاكم باكستان والى رئيس وزرائها في قضية المودودي[3]

كما يمكن التأمل في قول الإبراهيمي في المودودي :

"فإننا نقول كلمة صريحة لوجه الله وهي أن المودودي وحده أقدر رجل على وضع الدستور الإسلامي المنشود لدولة باكستان، وأبرع عالم في انتزاع ذلك الدستور من القران والحديث، ومن المقاصد العامة في التشريع الإسلامي والأصول المتفق عليها بين الأمة"[4]

وهذا كلام يدل بما لا يدع مجالا للشك في أن الابراهيمي من حيث المبدأ يرى بأن الدين هو الذي يجدر أن يحكم حركة الحياة، والاهتمام باللغة العربية يكاد يكون هما مشتركا لمن يتقاسمون هذا الطرح الايديولوجي.

ولعل الحدث الرمزي الذي يختصر إشكالية الهوية في بعدها اللغوي ضمن السياق الجزائري هو توقيع " اتفاقيات "ايفيان " سنة 1962 باللغة الفرنسية فقط ، وهو ما يحمل الكثير من الدلالات الرمزية عن مكانة اللغة العربية لدى المفاوض الجزائري، ويمكن اعتبار ذلك أول صفعة للغة العربية في مستقبل جزائر الاستقلال ، خصوصا عندما نقارن أنفسنا بغيرنا وكيف يتعاملون مع لغتهم، فلقد وقعت اتفاقية "جنيف " سنة 1954 التي أنهت الاستعمار الفرنسي للفيتنام باللغتين (الفيتنامية –الفرنسية)[5]

ثالثا: الخطاب الإعلامي حول المسألة اللغوية:

بغرض فهم خلفيات الخطاب الإعلامي حول المسألة اللغوية يجدر رؤية المسألة اللغوية ضمن المستويات الايديولوجية التالية:

---

[1] شارل ديغول، مذكرات الأمل، منشورات عويدات، بيروت، دون تاريخ، ص 47

[2] بن يوسف بن خدة، اتفاقيات ايفيان، تعريب لحسن زغدار، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 118

[3] .. شاع في أنحاء العالم أن المحكمة العسكرية بمدينة لاهور حكمت بالاعدام على عالم من أكبر علماء الاسلام، ومن أعظم دعاته، وهو الشيخ أبو الاعلى المودودي....أنظر: محمد البشير الابراهيمي، عيون البصائر، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، دت ، ص 697 .

[4] محمد البشير الابراهيمي، عيون البصائر، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، دت ، ص 695

[5] www.csla.dz/mjls/index.php?option=com_remository&Itemid=55&func=fileinfo&id=5

1-الأديولوجيا السائدة:

ليس من اليسير الحديث عن وجود إيديولوجية واحدة تسود المجتمع ككل، وإنما هناك قيم ثقافية -تقترب أو تبتعد عن جوهر الدين- على المستوى الشعبي يقابلها إيديولوجية سياسية يتبناها النظام القائم حسب المرحلة الزمنية. وهنا نلمس في الواقع انفصاما بين الخطاب الرسمي والواقع الاجتماعي.

2-أيديولوجيا النخبة:

وأما النخب المثقفة فهي لا تنهل من نفس الروافد الفكرية، بل هي منقسمة على نفسها، وتبلورت في أشكال تنظيمية تمارس نفوذها بطريقة أو بأخرى في محاولة لاستيعاب المد الشعبي إلى صفها.

و يمكن القول بأن نقطة الافتراق الأساسية بين هذه النخب تتمثل في الموقف من المكانة الاجتماعية للدين، وهنا نميز بين الطرح الايديولوجي الذي يعتبر نفسه محافظا ويروم تجسيد القيم الدينية في واقع الحياة سياسيا واقتصاديا وثقافيا ونحو ذلك.

وفي هذا الإطار يعتقد أن الهوية والانتماء له بعد ديني يتجاوز الاعتبارات الأخرى، وهنا نجد أن اللغة العربية هي اللسان الناطق باسم هذه الهوية، والقول المأثور عن الثعالبي يعبر عن أفكار هذا الطرح عندما تحدث عن إلزامية دراسة العربية: من أحب الله، أحب رسوله المصطفى -صلى الله عليه وسلم-، ومن أحب الرسول أحب العرب، ومن أحب العرب أحب اللغة العربية التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العرب والعجم، ومن أحب العربية عني بها، وثابر عليها وصرف همته إليها"[1]،

وأما الطرح الإيديولوجي الثاني فانه يعتبر نفسه حداثيا ويروم تحييد القيم الدينية عن واقع الحياة، ومحاصرتها في زاوية الأداء الفردي لا الجماعي.

وفي هذا الإطار لا يرى في دينية الهوية والانتماء بعدا مميزا للشخصية الوطنية، وبالتالي فان اللغة العربية لا تصلح أن تكون لسانا ناطقا باسم الهوية، لأن الامتداد الحضاري والثقافي للمجتمع يتميز بالتعددية والتنوع اللغوي، وهنا لا يسوغ التحيز لخيار ثقافي أو حضاري على حساب آخر.

[1] نسيم الخوري، الإعلام العربي وانهيار السلطات اللغوية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005، ص 89

3-الأيديولوجيا الصحفية: وباعتبار الصحفي من النخب المثقفة في المجتمع فان الخطاب الإعلامي يتناغم مع هذه الإيديولوجية إلى حد بعيد، ويمكن الاستدلال على ذلك من خلال الإطار الإعلامي الذي صاغ من خلاله الخطاب الإعلامي موقفه من اللغة .

ويمكن القول بأن الخطاب الصحفي حول المسألة اللغوية في الجزائر يتمحور حول عدة أبعاد يمكن أن نجملها في الجدول التالي :

الأبعاد	النموذج المحافظ	النموذج الحداثي
اللغة	العربية	الفرنسية
تطور اللغة	يمكنها استيعاب المعارف والعلوم والتكنولوجيا	الفرنسية لغة التطور والعربية عاجزة
مجالات الاستخدام	جميع المجالات	العلوم والتكنولوجيا للفرنسية والآداب والدين والعلوم الاجتماعية للعربية
التعريب	تأييد مطلق	رفض ضمني
ظروف التطبيق	مناسبة	غير مناسبة
التموقع العالمي	ركوب قطار العالمية بهوية عربية	تأشيرة إلى العالمية

ولعله من المفارقات التي نجدها في الخطاب الصحفي الجزائري أن هذه الازدواجية اللغوية لم تقتصر فقط على ثنائية الإعلام المعرب والإعلام المفرنس، بل تعداها إلى الإعلام المعرب نفسه، ونستدل على ذلك بالمثال التالي:

لقد نشرت جريدة الخبر الجزائرية في يوم 20 ديسمبر 2012 مقالا بعنوان "دفاعا عن اللغة الهجينة ضد الدكتور بن محمد[1]، وكاتبه هو الصحفي حميد عبد القادر، ونورد مقتطفات منه:

"ولا أعتقد أن المشكلة تكمن فقط في اللغة بقدر ما تكمن في الوعي"

"ويبدو لي كذلك أنه ليس من الصواب رفض هذه الهجينية والسخرية منها. لقد اختار الشعب لغة هجينة، وهو حر في اختياره، بل أقول انه اختيار رائع وذكي."

"ربما نمارس قوة القانون على تطبيق التعريب في المؤسسات الرسمية، وهذا شيء قد يجوز المعاملة به، لكن أن نفرض نفس المنطق على لغة الشعب اليومية، فهذا من المستحيلات"

[1] وزير سابق للتربية والتعليم بالجزائر(1991-1992)، وهو من المدافعين عن اللغة العربية والتعريب في الجزائر.

"قيل للجزائري انه عربي وبصيحة سياسية بالثلاث في عهد الرئيس أحمد بن بلة، وقيل انه يشبه عرب الجزيرة العربية وصحراء اليمن، فأراد أن يقول العكس، ويثبت بأنه ينتمي لمنطقة متوسطية، عرفت عبر التاريخ قدوم ثقافات وشعوب ولغات، فسكنت جيناته.."

"إن خلاص الجزائر يكمن في هذه اللغة الهجينة والكريولية التي تأخذ من لغات عديدة وتنحت لغتها الخاصة بها"

وفي هذا المقال يمكن ملاحظة ما يلي:

1-تغييب لمكانة اللغة العربية

2-الدفاع عن اللغة الهجينة

3-الاعتراض على المدافعين عن اللغة العربية

4-الهوية المتوسطية للمجتمع الجزائري

وفي المقابل كتبت جريدة الشروق في19 ديسمبر 2012 عنوانا :" علي بن محمد يكرم بوسام خادم اللغة العربية" ونقلت عنه قوله:

وعلى قدر تقدم هذه اللغة في المحافل الدولية نجدها تعلو وتهبط في الجزائر في كل الميادين حتى صرنا نرى لغات أجنبية تعلو على نواصي الدكاكين، كما صارت العربية مقصاة من ميادين الإشهار، ليس هذا وحسب بل صرنا نعزي موتانا بلغات أجنبية.

وفي هذا المقال يمكن ملاحظة ما يلي:

1-التأكيد على مكانة اللغة العربية

2-الاعتراف بنضال المدافعين عن اللغة العربية

3-انتقاد وضعية اللغة العربية مقارنة مع غيرها

رابعا: الاستنتاجات

ومن خلال ما تقدم نخلص الى استنتاج رئيسي مؤداه أن الخلفية الايديولوجية هي التي تفسر واقع الازدواجية اللغوية في الجزائر، وهي المتسبب الرئيسي في حالة الاستقطاب التي يعايشها المجتمع في كافة المجالات، وبالتالي فان الصحافة المكتوبة ماهي إلا فضاء يعكس هذه الأطروحات المختلفة، والتي لم تقتصر فقط على الإعلام الناطق بالفرنسية، بل تعدته إلى الإعلام الناطق بالعربية .

كما يمكن إرجاع انقسام الخطاب الإعلامي الصحفي الجزائري حول المسألة اللغوية إلى الأسباب التالية:

1-عدم وضوح الرؤية إزاء المشروع المجتمعي:

أو بالأحرى انقسام الرؤى حول طبيعة المشروع المجتمعي الذي ينهض بالمجتمع ويحقق الاستقرار والازدهار. وهنا يمكن أن نميز بين الطرح"الذي يعتبر نفسه حداثيا" ويفصل القيم الثقافية للمجتمع عن ممارسة دور في تنظيم المجتمع سياسيا واقتصاديا وثقافيا وتعليميا، وبين الطرح"الذي يعتبر نفسه محافظا" ويتصور"الخلاص" المجتمعي والازدهار منوطا بالقيم الثقافية التي يتصور أنها جديرة بالتطبيق في جميع مجالات الحياة.

2-المصالح والامتيازات التي يتمترس خلفها كل فريق:

ما من شك في أن النخبة التي تتمتع بالنفوذ والانتشار في مؤسسات الدولة يغلب على النخبة فيها التكوين باللغة الفرنسية، نظرا لاعتبارات تاريخية مرتبطة بالأوضاع الاجتماعية والسياسية والتعليمية قبل الاستقلال وفي بداياته، لذلك وجدنا بأن اللغة "الفعلية "للإدارة والاقتصاد في مجملها باللغة الفرنسية حتى في بعض القطاعات مثل وزارة الشؤون الدينية ووزارة التربية. وتبعا لهذا الاعتبار فان هذه النخبة تحرص على استمرارية الوضع لأن ذلك يكفل لها استمرارية المكانة والنفوذ.

وفي المقابل فان الكفاءات الأخرى تنتظر دورها في التموقع الإداري والاقتصادي والسياسي، وتتصور أن "غنيمة الحرب" التي يعتقد الفريق الأول أنها الورقة السحرية التي تنقل المجتمع إلى التفوق التكنولوجي والرفاهية الاجتماعية لم تحقق المطلوب، بل إن مؤشرات التخلف وتفشي مظاهر الفساد المالي والإداري والاقتصادي بارزة للعيان.

3-بين القابلية للهيمنة اللغوية والتشبث بأفكار جامدة:

في الوقت الذي نجد أن الكثير من الشعوب والمجتمعات تحافظ على لغاتها وتبذل المجهودات لنشرها وتشجيع تعليمها، كما أن بعضها يجتهد في إحياء لغات كانت في طريقها للاندثار، نجد أن هناك من يدافع عن استبدال لغته الأصلية بلغة أخرى يرى فيها الوسيلة الوحيدة للتقدم الحضاري، فإذا كانت اللغة مسؤولة عن التقدم فلماذا نجد بعض الدول تستعمل اللغة الانجليزية كلغة رسمية- وهي كما هو معلوم لغة العلم والتكنولوجيا والانترنت- ورغم ذلك فهي غارقة في التخلف، وعلى سبيل المثال نذكر بعض الدول الإفريقية التي تستعمل اللغة الانجليزية لغتها الرسمية.

4-النفوذ السياسي والسيادة الوطنية :

من الصعوبة بمكان فصل المسألة اللغوية عن الاعتبارات السياسية والمصالح الاقتصادية والثقافية التي تحكم علاقات الدول فيما بينها، ويتأكد هذا الطرح بين الدول المستعمرة(بكسر السين) ومستعمراتها السابقة، فاستقلال بعض الدول كان مشروطا بالتعاون الوثيق مع المحتل السابق، ويكفي التمعن في حجم المبادلات الاقتصادية وسيطرة ونفوذ الشركات الأجنبية على الاقتصاد المحلي، مما يهدد الأمن الاقتصادي والاجتماعي ويقلص من سيادة الدولة واستقلالية قرارها السياسي والاقتصادي والاجتماعي والتعليمي والثقافي...الخ

5-مكانة الدين في المنظومة التربوية بين مدافع ومعارض

هناك اختلافات حوهرية في الدور والحجم الذي يعطى للتربية والثقافة الدينية في الوسط التربوي، فهناك من يطرح فكرة استبعادها أوترك مجال الحرية للاختيار بين الديانات بطريقة متكافئة وليس فيها أدنى تحيز أو توجيه، وفي الجانب المقابل هناك من يطالب بحضور أكبر للدين في المنهج التربوي، دون أن ننسى الفكرة التي طرحتها وسائل الإعلام مؤخرا حول اقتراحات بشأن استبدال التربية الإسلامية بالتربية المرورية، وهو طرح يعكس جانبا من جوانب الانقسام حول الموضوع.

6-حضور المختصين بين الإشراك الانتقائي والتهميش الاقصائي

إن التأمل في التركيبة البشرية التي هيمنت على هندسة الإصلاحات التربوية يكتشف هيمنة اتجاهات إيديولوجية معينة على المشاركين في إعداد التقرير الخاص باللجنة الوطنية للإصلاح التربوي عام 2001[1].

فغياب التوزان في تمثيل الكفاءات رجح خيارات معينة ليس هناك إجماع حولها ولا قناعة شاملة بجدواها، إضافة إلى أن عملية التجديد والإصلاح التربوي عملية مستمرة في الزمن ولا بد من قيام حوار شامل يشارك فيه جميع المعنيين بالمسألة التربوية حتى التمكن من إنضاج خيارات مبنية على أسس علمية ودراية واقعية بدل سياسة الهروب إلى الإمام والانكفاء على خيارات محدودة الأفق.

خاتمة

لعل الاستنتاجات السابقة تسلط الضوء على بعض الجوانب التي يمكن أن تفسر لنا انقسام المعالجة الإعلامية حول المسألة اللغوية، فالنخبة الإعلامية جزء من النخبة في المجتمع، وهي تحمل خصائصها الفكرية والمذهبية، ومن جهة أخرى فان وسائل الإعلام هي مرآة عاكسة لبنية المجتمع سياسيا واقتصاديا وثقافيا واجتماعيا وتربويا، والانقسام الإيديولوجي الاجتماعي ألقى بظلاله على الانقسام الإيديولوجي الإعلامي.

لقد أشار وزير التربية الحالى إلى ضرورة القيام بمراجعات وإصلاحات"للإصلاحات" التربوية التي أقرتها لجنة إصلاح المنظومة التربوية عام 2001 ، ومن الضروري أن لا تتم هندسة هذه المراجعات بعيدا عن إشراك المختصين والباحثين من مختلف التخصصات المعنية بالموضوع، كما أن فتح الإعلام المرئي والمسموع المجال لكل الكفاءات العلمية بطريقة احترافية ومتوازنة كفيل بإنضاج مقترحات قيمة ومدروسة وتستند إلى معطيات واقعية وموضوعية.

ولعله من نافلة القول التذكير بدور وسائل الإعلام في إثارة الاهتمام العام بالقضايا المختلفة، ولعل المسألة اللغوية جديرة بالنقاش ، لأنها من القضايا التي تحتاج إلى موقف وطني موحد في ظل حالة الاستقطاب الموجودة والتي كثيرا ما تنتصر لخيارات إيديولوجية ومصلحية أكثر منها علمية وموضوعية وواقعية.

وخير ما نتواصى به في ختام هذه المقالة المعاني التي أوردها الشاعر الجزائري محمد العيد آل خليفة حينما أشار إلى مكانة اللغة العربية والزامية الاعتناء بها وخدمتها:

لكم اللسان الفذ في ايضاحه رغما على الساعين في إبهامه

لا تهملوا هذا اللسان ففقدكم في فقده ودوامكم بدوامه

فكأنما هو عقد در فائق رصفا وعلم النحو سلك نظامه

[1] تكونت من 160 عضوا ،برئاسة علي بن زاغو أستاذ مختص في الرياضيات ، وكلفت بإعداد تقرير حول واقع المنظومة التربوية ، وأثير جدل واسع حول التوجهات السياسية والإيديولوجية لهذه اللجنة، التي قدمت تقريرها النهائي لرئيس الجمهورية، والذي عرف طريقه إلى التجسيد الميداني.